Route Educational and Social Science Journal ISSN: 2148-5518

Volume 5(8), June 2018

Article History		
Received/Geliş	Accepted/ Kabul	Available Online / Yayınlanma
26 /4/2018	5 /6/2018	10 /6/2018

أثر الأزمات والكوارث في الحياة العامة بالمشرق
" قراءة في رحلتي ابن يونة وابن بطوطة "

د. نواف عبد العزيز الجحمة

أستاذ مشارك /كلية التربية الأساسية /الهيئة العامة للتعليم التطبيقي

الكويت

الملخص

لقد شهد المشرق العربي في الفترة الوسيطية كغيره من الأقاليم الجغرافية الأخرى أزمات وكوارث عديدة، عرفت المنطقة على اثرها سلسلة من التحولات الكبرى والانعطافات الحاسمة في مسارها التاريخي، فكانت أزمتا النشاط الزلزالي والوباء من أشد البلايا وقعا على هذا المجتمع، خاصة وإنها قد افرزت واقعا مريرا على انسان المشرق معايشتة في تلك الفترة.

ولا تزال مثل هذه الأزمات والكوارث بحاجة ماسة الى دراسة عميقة، علما بأن التأريخ للمشرق يستوجب الإلمام بكل حيثياته، دون إهمال أي جزء منها، ومن هنا جاءت الالتفاتة العلمية لإماطة اللثام عن فترات عصيبة مرت بها المنطقة في حقب زمنية مختلفة من العصر الوسيط.

ولهذا فإن اهمية دراسة موضوع:**"أثر الأزمات والكوارث في الحياة العامة بالمشرق:قراءة في رحلتي ابن يونة وابن بطوطة"** تكمن في محاولة إزالة العتمة عن مراحل صعبة عاشها هذا الفضاء الجغرافي ابان تعرضه لمثل هذه الأزمات والتي لها من دون شك آثار سلبية على كافة المستويات على الجانب الاقتصادي والاجتماعي والديمغرافي، ولها انعكاسات على الأفكار والذهنيات والرؤى.

ومن هذا المنطلق، وفي هذا الإطار الأخير جاء اختيارنا لعنوان هذا الموضوع الذي يتلخص هدفه الاساس في تبيّن نوع الصورة التي كونها الرحالين المعروفين وهما ابن يونة التطيلي:(561-569هـ/1165-1173م) ، وابن بطوطة الطنجي:(703-770هـ/1303-1368م).

ولأجل تحقيق هذا الهدف، حرصنا على تتبع ما أورداه في مصنفاتهم من الأخبار والإشارات التي تحيل إما صراحة أو ضمنيا على هذه الصورة، ثم انتقلنا ثانية إلى تحليلها ومناقشتها متغيين في نهاية المطاف الوقوف على أهم الأستنتاجات والخلاصات التي انتهى إليها البحث.

أثر الأزمات والكوارث في الحياة العامة بالمشرق " قراءة في رحلتي ابن يونة وابن بطوطة "

د. نواف عبد العزيز الجحمة

mpact of crises and disasters in public life in the Mashreq
Read on my journey Ibn Yona and Ibn Battuta

Dr. Nawaf Abdulaziz Al-Jahmah

Summary:
In the Middle East, as in other geographical regions, there were many crises and disasters. The region was marked by a series of major transformations and decisive changes in its historical course. The crises of seismic activity and the epidemic were among the worst afflictions on this society, A man of the Orient lived in that period.
Such crises and disasters are still in urgent need of deep study. The history of the Mashreq requires knowledge of all its aspects, without neglecting any part of it. Hence, scientific attention has been given to uncovering the difficult periods experienced by the region in different periods of the Middle Ages.
Therefore, the importance of studying the subject: "The impact of crises and disasters in public life in the Orient: a reading in the journeys of Ibn Yonah and Ibn Battuta" is to try to remove darkness from the difficult stages experienced by this geographical space when exposed to such crises which undoubtedly have negative effects at all levels On the economic, social and demographic side, and has implications for ideas, ideologies and visions.
In this context, we have chosen the title of this topic, whose main purpose is to identify the type of image that is known as Rahalin, the son of Jonah al-Taylili (561-569h / 1165-1173) and Ibn Batuta al-Tanji (703-707 / 1303). -1368 AD.(
In order to achieve this goal, we have been keen to follow the news and references in their work that refer either explicitly or implicitly to this picture, and then moved back to the analysis and discussion, ultimately go to the most important conclusions and conclusions reached by the research.

المقدمة:

لقد شهد المشرق العربي في الفترة الوسيطية كغيره من الأقاليم الجغرافية الأخرى أزمات وكوارث عديدة، عرفت المنطقة على أثرها سلسلة من التحولات الكبرى والانعطافات الحاسمة في مسارها التاريخي، فكانت أزمتا النشاط الزلزالي والوباء من أشد البلايا وقعاً على هذا المجتمع، خاصة وأنها أفرزت واقعاً مريراً على إنسان المشرق ومعايشته في تلك الفترة.

ولا تزال مثل هذه الأزمات والكوارث بحاجة ماسة إلى دراسة عميقة، علماً بأن التأريخ للمشرق يستوجب الإلمام بكل حيثياته، دون إهمال أي جزء منها، ومن هنا جاءت الالتفاتة العلمية لإماطة اللثام عن فترات عصيبة مرت بها المنطقة في حقب زمنية مختلفة من العصر الوسيط.

ولهذا فإن أهمية دراسة موضوع: "أثر الأزمات والكوارث في الحياة العامة بالمشرق: قراءة في رحلتي ابن يونة وابن بطوطة" تكمن في محاولة إزالة العتمة عن مراحل صعبة عاشها هذا الفضاء الجغرافي إبان تعرضه لمثل هذه الأزمات والتي لها من دون شك آثار سلبية على كافة المستويات على الجانب الاقتصادي والاجتماعي والديمغرافي، ولها انعكاسات على الأفكار والذهنيات والرؤى.

ومن هذا المنطلق، وفي هذا الإطار الأخير جاء اختيارنا لعنوان هذا الموضوع الذي يتلخص هدفه الأساس في تبين نوع الصورة التي كونها الرحالان المعروفان وهما بنيامين بن يونة التطيلي الأندلسي (561-569هـ/1165-1173م)[1] وابن بطوطة اللواتي الطنجي: (703-770هـ/1303-1368م).[2]

ولأجل تحقيق هذا الهدف، حرصنا على تتبع ما أورداه في مصنفاتهما من الأخبار والإشارات التي تحيل إما صراحة أو ضمنياً إلى هذه الصورة، ثم انتقلنا ثانية إلى تحليلها ومناقشتها متغيين في نهاية المطاف الوقوف على أهم النتائج والخلاصات التي انتهى إليها البحث.

1- النشاط الزلزالي: (552هـ-1157م)،(565هـ-1170م)

تمثل رحلة الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي مكانة متميزة في إلقاء الضوء على الزلازل التي منيت بها مملكة بيت المقدس الصليبية خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري (12م)، والتي أدت إلى إلحاق خسائر بشرية ومادية جسيمة، ونعني بها المرحلة من (552هـ-1157م) و (565هـ-1170م)، وقد شملت تلك الزلازل بتأثيرها مناطق متسعة الأجزاء الشمالية من الشام والمناطق الساحلية، ويلاحظ أن تلك المنطقة شهدت تغيرات طبوغرافية وديموجرافية التي كانت تحل بتلك المنطقة ذات الموقع الهام والتي شهدت الصراع بشأنها في صورة الحروب الصليبية التي غزت المنطقة منذ أواخر القرن الخامس الهجري(11م).

وكل ذلك من شأنه أن يوضح العلاقة بين الظواهر الجغرافية وفعالياتها التاريخية على نحو جعل دراستها أمراً ضرورياً وملحاً، ولا ريب في أن ذلك العصر شهد في أحيان كثيرة، كيف وجهت الجغرافية التاريخ بسرعة وفعالية.

وتجدر الإشارة إلى أنه لا توجد بيانات وعلامات في مدونات الرحالة الأندلسيين والمغاربة تتحدث بإمعان عن ظاهرة الزلازل[3] وانعكاسها على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المشرق العربي، إلا ما ورد في رحلة بنيامين التطيلي في إشارته إلى الزلازل التي أصابت بلاد الشام وما خلفت

---

(1) لم يعرف الكثير عن الرحالة بنيامين التطيلي، وهو رحالة يهودي من الأندلس، ولد بتطيلة حوالي 1130م، وجل ما يعرف عنه مستقى من رحلته هذه أو من مقدمة قصيرة وصفها أحد نساخ الرحلة لعله كان قريب العهد من زمانه، وهذا نص هذه المقدمة:" هذا كتاب رحلة الربي بنيامين بن يونة التطيلي النباري الذي جاب المدن العديدة البعيدة، وسجل ما شاهده في الأمصار التي مر بها عياناً أو ما نقله عن الثقاة ذوي الأمانة المعروفين لدى يهود أسبانيا، وقد أورد أسماء مشاهير العلماء والرؤساء اليهود في الأماكن التي زارها، وعاد بمعلوماته هذه إلى قشتالة سنة (569هـ/1173م)"، التطيلي، بنيامين، رحلة ابن يونة إلى بلاد الشرق الإسلامي، ترجمها وعلق على حواشيها عزرا حداد، ط1، بيروت، دار ابن زيدون، 1996،ص7؛ شحلان احمد، رحلة بنيامين التطيلي،" ندوة الرحلة بين الشرق والغرب" منشورات جامعة محمد الخامس، الرباط، 2003م،ص 178،177.

(2) هو رحالة كبير، طاف في كثير من أقطار الأرض، وهو من البربر ولد سنة 703هـ ،والدولة المرينية في عنفوان القوى، وهو سليل أسرة علمية ظهر فيها القضاة ومشايخ العلم على ما أخبر هو عنها في الرحلة لما خيره ملك الهند في وظائف الوزارة والكتابة والإمارة والتدريس، قام بعدة رحلات إلى البلدان الأفريقية والآسيوية، بالإضافة إلى البلدان العربية وبلغ تطوافه الهند والصين، حج مكة المكرمة، وزار المدينة المنورة، والمشاهد المقدسة كالقدس والخليل .وسجلت رحلاته هذه وأهمها الرحلة الأولى التي بدأها من مسقط رأسه طنجة والتي قام بها سنة 725 هـ.

. انظر ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، قدم له وحققه ووضع خرائطه وفهارسه عبد الهادي التازي، مطبوعات اكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ/1997م؛ عبد الله كنون، ذكريات ومشاهير رجال المغرب (ابن بطوطة)، منشورات المنظمة الإسلامية . ايسيكو . 1996 ؛كراتشكو فسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ترجمة صلاح الدين هاشم، القاهرة، 1963م،ص 298.

(3) الزلزلة في اللغة العربية تحريك الشيء بشدة وعنف، وقد ورد لفظ الزلزلة بأشكال وصور مختلفة في القرآن، فهناك "زلزلت" و"زلزالها كما في سورة الزلزلة رقم (99)، آية (1)، وترد"زلزالاً" كما في صورة الأحزاب رقم (33) آية (11) وكذلك "زلزلوا" على نحو ما نجده في سورة البقرة رقم (2) آية (11)، وأيضاً "الزلزلة" في سورة الحج رقم (22)، آية (1).

من آثار مدمرة على الصعيدين العمراني والإنساني خصوصا في مدينتي حماة وطرابلس ، فهو يقدم لنا تحديداً معيناً لعدد الذين ماتوا من جرائه، هذا وإن كانت الأرقام تحمل طابع المبالغة إلا أنها تعكس لنا طبيعة الدمار والهلاك حينذاك.

والواقع أن الزلازل التي وقعت في عام (552هـ/1157م)، تعد بحق من أكبر ما حل ببلاد الشام من صور التخريب[4] ومن الأهمية بمكان تناول الخسائر الناجمة عن الزلازل ذلك العام، ويمكن رصد ذلك من خلال عدد من المدن الشامية ونعني بها حماة وحمص وحلب ودمشق، في هذا السياق يذكر الرحالة بنيامين أن مدينة حماة أصابتها هزة أرضية عنيفة منذ عهد قريب أهلكت خمسة عشر ألفاً من سكانها بيوم واحد، فلم يبق منهم إلا سبعون نفساً[5].

نلاحظ أن حجم الخسائر البشرية والمادية كان كبيراً إلى درجة جعلت أحد المصادر التاريخية يوصف الزلزال نفسه بأنه "زلزال حماة"[6]، أما ابن القلانسي فيصف آثار هذا الزلزال فيقول:" انهدمت حماة وقلعتها، وسائر دورها، ومنازلها على أهلها من الشيوخ والشباب، والأطفال والنسوان، وهم العدد الكبير، والجم الغفير، بحيث لم يسلم منها إلا القليل اليسير"[7].

الجدير بالذكر أننا لا نجد تحديداً معيناً لعدد أولئك الذين صرعتهم الهزات الزلزالية في حماة، إلا لدى الرحالة بنيامين الذي أوضح بصراحة أنه لم يتبق من سكانها أحياء سوى سبعين نفساً على حد قوله.

ومن الممكن الاعتقاد أن هناك مبالغة من جانب ذلك الرحالة في تحديد كثرة أعداد الموتى، وقلة الناجين في مدينة أقرت المصادر التاريخية أنها تضم كثافة سكانية كبيرة[8] ولكن يبقى ذلك دليلاً واضحاً على بشاعة ما أحدثته تلك الهزات الزلزالية من آثار تدميرية.

ويلاحظ أنه تم تعمير المدينة تعميراً واسع النطاق سواء بتشييد المنازل أو بحدوث هجرات سكانية إليها من المناطق المجاورة التي لم تحل بها نفس الخسائر البشرية – على نحو أعاد إليها خلال الثلاثين عاماً التالية ازدهارها السابق، على حدوث تلك الهزات الزلزالية، وقد أشار ابن قاضي شهبة إلى حجم الدور الكبير الذي لعبته الدولة النورية من أجل تعمير المناطق المنكوبة[9] ومما يدعم هذا التصور أن الرحالة ابن جبير

---

(4) عن الهزات الزلزالية في عام (552هـ/1157م) في بلاد الشام وآثارها انظر:ابن القلانسي، أبو يعلي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، ط.دمشق،1983، ص527-528؛ ابن الأثير، عز الدين محمد، الكامل في التاريخ، ط القاهرة، ب- ت،ج11،ص88؛ أبو شامة، شهاب الدين، الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي، ط. القاهرة، 1962، ج1، ق1، ص262، 269؛ ابن واصل، جمال الدين، مفرج الكروب في تاريخ بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، ط.القاهرة، 1953، ص128؛ ابن شاكر الكتبي، محمد بن احمد، فوات الوفيات، تحقيق محمد محيي الدين، ط. القاهرة، 1951، ج1 ، ص178؛ ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط.القاهرة، ج5، ص325.

(5) بنيامين التطيلي، الرحلة، ص120.

(6) Ruhricht(R.) Ges shichte des Ken greiche Jerusalem, Innsbrucr 1889.P . 290, note(6).

محمد مؤنس عوض، النشاط الزلزالي في بلاد الشام في المرحلة من (551-554هـ) (1156-1159) وآثاره في مناطق المسلمين والصليبيين، كلية الآداب عين شمس، مركز بحوث الشرق الأوسط، سلسلة دراسات (140)، القاهرة، 1993، ص13.

(7) ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أمين روز وسهيل زكار،ط.دمشق، 1983، ص526.

(8) المصدر السابق، ص526.

(9) ابن قاضي شهبة، تقي الدين، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد، ط. بيروت، 1971، ص 153.

الأندلسي[10] في رحلته التي زار فيها مدينة حماة، بعد ثلاثين عاما من حدوث الزلزال المدمر، لم يشر إليه البتة، بل تحدث عنها بوصفها مدينة مزدهرة من أوجه عديدة[11] .كما يؤكد الجغرافي ياقوت الحموي على وصفها بالازدهار التجاري، وتوافر الأسواق التجارية بها[12]، وهذا يعود بالطبع إلى الجهود العمرانية للدولة النورية والدولة الأيوبية.

أما زلزال عام (565هـ/1170)، فكان من أكثر الزلازل التي منيت بها بلاد الشام من ناحية حجم الدمار الذي نجم عنه في مختلف أنحاء بلاد الشام إلى درجة أن الأرض "ماجت كالبحر إذا عصفت به الرياح العنيفة"[13] فهدمت العديد من المنازل والقلاع وامتد تأثيره إلى مدن تتبع المناطق الإسلامية مثل: حلب، وحماة، وحمص، وشيزر، وبعرين ودمشق، وبعلبك[14] أضف إلى ذلك أن الملك العادل نور الدين[15] عاين ما أصاب المدن الشامية، فحزن عليها، وأعظم المصيبة التي صارت إليها، وكتب إلى الخليفة الإمام المستنجد بالله العباسي[16] يذكر له أمر الزلزلة ونكايتها في حلب وبلاد الشام، بإنشاء العماد الكاتب [17] وتعد هذه الرسالة الصادرة عن ديوان الإنشاء بمثابة المصدر الرسمي بالنسبة للتعرف على ما حل ببلاد الشام من جراء زلزال عام 565هـ/1170م.

---

(10) بلنسي شاطبي، عني بالأدب وبالحديث، وتقدم في صناعة النثر والنظم، رحل إلى المشرق ثلاث مرات، وزار في الأولى سنة (585هـ) مصر والشام والعراق والحجاز، وكتب رحلته هذه، وتعد من أمتع الرحلات الجغرافية العربية وأغناها بالملاحظات الاجتماعية والعلمية. نشر الرحلة رايت في ليدن عام 1852م، وأعاد نشرها دغويه سنة 1907م، ثم نشرت في بيروت. انظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عنان، م11، ط. القاهرة،1974م، ص 233 – 234؛كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص 331.

(11) ابن جبير، محمد الكناني البلنسي، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار (طبع باسم رحلة ابن جبير)، دار الشرق العربي، بيروت – لبنان، ب.ت، ص197، 198.

(12) ياقوت الحموي ،شهاب الدين، معجم البلدان، ط.بيروت، ب.ت، ج2، ص300.

(13) الفتح البنداري، سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، القاهرة، 1979، ص47.

(14) عن تأثير الزلازل في هذه المدن انظر: ابن الأثير، الكامل، ج11، ص143؛ أبو شامة، الروضتين، ص184؛ المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال ،ط.القاهرة ،1967 ، ج3، ص318؛محمد مؤنس عوض، الزلازل في بلاد الشام، ص95-102.

(15) هو الملك العادل أبو القاسم نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي(511-569هـ)(1118-1174م) وهو الابن الثاني لعماد الدين زنكي.حكم حلب بعد وفاه والده،وقام بتوسيع إمارته بشكل تدريجي كما ورث عن أبيه مشروع محاربة الصليبيين واسترداد بيت المقدس..شملت إمارته معظم الشام وتصدى للحملة الصليبية الثانية ثم قام بضم مصر لإمارته وإسقاط الفاطميين والخطبة للخليفة العباسي في مصر بعد أن أوقفها الفاطميون طويلا وأوقف مذهبهم .وبذلك مهد الطريق أمام صلاح الدين الأيوبي لمحاربة الصليبيين وفتح القدس بعد أن توحدت مصر والشام في دولة واحدة.

انظر: شهاب الدين عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي،عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية،1991،ص 386؛ أبو عباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،1968،ص 184 ؛ الصلابي، علي محمد ، نور الدين محمود زنكي شخصيته وعصره،دار الأندلس الجديدة،القاهرة،2008؛ مؤنس ،حسين ،نور الدين محمود سيرة مؤمن صادق،الدار السعودية للنشر،جدة،1408هـ/1987.

(16) أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفي لأمر الله،بويع بالخلافة عقب وفاة والده سنة555هـ ،واستمر خليفة إلى أن مات في ربيع الآخر سنة 566هـ ، فكانت خلافته 11 سنة وشهراً وأسبوعاً . إن ما يرويه بنيامين عن الخليفة المستنجد بالله من صفات يدل على ما كان له من مقام سام في قلوب يهود بغداد. انظر : بنيامين التطيلي ،الرحلة، ص132 ؛ محمد الخضري بك ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، بيروت ، دار المعرفة ، ص 464 .

(17) انظر نص الرسالة: ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، تحقيق محمد حسن الشماع، ط.البصرة، م4/ج1، 1976، ص96-97؛ ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية، ط. بيروت، 1984، ص212، 213.

كذلك امتدت آثار ذلك الزلزال إلى عدد من المدن الصليبية، سيما الساحلية منها وهي: أنطاكية، وطرابلس، وصور، وجبلة، واللاذقية[18] ومما يجدر الإشارة إليه أن زلزال أنطاكية وطرابلس كان مروعاً نظراً لحجم الدمار الذي خلفه فيها على نحو فاق المدن الصليبية الأخرى، والواقع أن الرحالة بنيامين لم يشر إلى زلزال (565هـ/1170م)، إلا عندما حل بمدينة طرابلس على نحو خاص، اذ يذكر أنه أصابها زلزال شديد، أدى إلى هلاك خلق كثير من اليهود وغيرهم ،انهارت عليهم الدور والحيطان فطمرتهم .ونيف عدد من هلك بهذا الزلزال في فلسطين وحدها على العشرين ألفاً[19].

بالرغم من أن بنيامين لم يذكر سنة الزلزال في نصه، إلا أن المقصود به على الأرجح هو زلزال (565هـ/1170)، وليس زلزال عام (552هـ/1157) كما تصور مترجم الرحلة إلى العربية عزرا حداد في تعليقه[20]، وما يعلل ذلك أن التاريخ الأخير يعد مبكراً عن التوقيت الزمني لرحلة بنيامين إلى بلاد الشام، فرحلته تمت خلال المرحلة من (561-569هـ) (1165-1173م)، ومما يدعم هذا التصور ما ذكره الرحالة في وصفه، إذ يقول:" وقد أصاب طرابلس قبل مدة وجيزة زلزال شديد"[21] هذا مع العلم أن المصادر الإسلامية والصليبية[22] لا تذكر إصابة طرابلس في عام (552هـ/1157) لكل هذه الخسائر البشرية والمادية الجسيمة، وبالتالي فقد كان تأثيره في المدن الإسلامية أكبر بكثير من تأثيره في المدن الصليبية[23]. ومع ذلك ينبغي أن نقرر أن زلزال عام (565هـ/1170)، قد خلف خسائر بشرية في صفوف الصليبيين وربما يعزى ذلك إلى حضور أعداد غفيرة من الحجاج اليهود والنصارى من الغرب الأوروبي من أجل الحج إلى الأماكن المقدسة في فلسطين ،مما زاد في الكثافة البشرية، كما كان استقرار الحركة الصليبية في المنطقة سبباً ثانياً في زيادة أعداد الصليبيين في المنطقة، مما جعل المصاب أكبر وتأثيره أشد على المملكة الصليبية خصوصاً، حيث عانت هذه المملكة من مشكلة نقص العنصر البشري على مدى الحملات الصليبية ضد المسلمين.

(18) William of Jyre, A history of the deeds hone begond Thesea, vol.II, Trans.by Babcok and Krey, New York 1943, p.370.

(19) بنيامين التطيلي، الرحلة، ص88.

(20) المصدر نفسه، ص88، تعليق 3 .

(21) المصدر نفسه، ص88.

(22) انظر إلى: محمد مؤنس عوض ، مصادر تاريخ الزلازل في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/الثاني عشرم (551-598هـ - 1156-1202م)، كلية الآداب عين شمس، سلسلة دراسات عن الشرق الأوسط (120)، 1992.

(23) محمد مؤنس عوض، الزلازل في بلاد الشام، ص100.

(24) ابن الفرات،ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم،تاريخ ابن الفرات،تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين،بيروت،م 8 ،1939؛تاريخ ابن الفرات،تحقيق حسن الشماع،بغداد،م4-1970،5-1976،م4 (1) ،ص94-98.

وقد وصف العماد الكاتب في عدد من كتبه وقصائده منها قصيدة نورية يذكر ما نال بلاد الفرنج من الزلزلة،هذا مطلعها [24]:

جَلَّ رُزْءُ الفرنج فَاسْتَبْدَلُوا مِنْـهُ بِلَبْسِ الحَدِيدِ لَبِسَ الحِـدَاد
فِرَقُ الرَّعْبِ مِنْهُ فِي أَنْفُسِ الكفـ ـار بينِ الأَرْوَاحُ وَالأَجْسَـاد
سَطْـوَةٌ زَلْزَلَتْ بِسُــكـَّانِهَا الأر ضِ وَهَدَتْ قَوَاعِدُ الأَطْـوَاد

ومما ذكره بنيامين عن حصون الدعوة الخاصة بالإسماعيلية المعروفة بالحشاشين[25] نستشف منه أنه قد أصابها الهدم والتخريب، ولعل هذه تكون من أوائل الإشارات الدالة على أن العناصر الإسماعيلية اعتبرت هي الأخرى قد مسها الضر من جراء الزلزال وليست العناصر اليهودية فقط، مع ملاحظة أن إصابة إمارة طرابلس بالزلزال الشديد كان يعني ضمنياً أن قلاع الدعوة أضيرت هي الأخرى .

بصفة عامة، ألحقت الزلازل أضراراً جسيمة بتلك البنية البشرية، ولا ريب في أن الأرقام المرتفعة للخسائر البشرية التي أوردها بنيامين مبالغ فيها ،إذا أنها لم تكن إحصائية ،إلا أنها تعكس فداحة تلك الخسائر البشرية،ويمكن القول أن مدن مثل حماة وطرابلس كانت من أكثر المدن الإسلامية والصليبية في فقدانها المفاجئ لأعداد كبيرة من السكان من جراء تلك الهزات الزلزالية.

2– المجاعة[26] وظاهرة الغلاء: (748هـ–1347م)

ربما تكون الأزمات السياسية في أغلب الأحايين سبباً رئيساً في حدوث اختلال التوازن الاقتصادي ، وارتفاع الأسعار ، والتهافت على شراء الأقوات، كما كان الغلاء من أكثر الظواهر الاقتصادية إضراراً بالعامة ، فيقاسون الجوع والمرض حيث ينتشر الوباء بين فئاتهم المختلفة ، وغالباً ما كان الجفاف وتوقف نزول المطر هو السبب الرئيسي لحدوث الغلاء[27] ويضطر الناس إلى صلاة الاستسقاء ، كما كان عامل قصر مد النيل سبباً في ظاهرة الغلاء وكثرة الشح ، وقلة الأقوات في البلاد ، وهكذا نلاحظ شح بعض الأمراء ومنعهم دخول الجياع من الناس إلى بيوتهم وقت

(25) طائفة شيعية متطرفة انفصلت عن العبيديين وكان المؤسس لها في شمال الفرس حسن الصباح(ت1124/518) ،عرف أعضاؤها تحت اسم الفدائيين أو (الفداوية)،باعتبارهم يقدمون حياتهم فداء ،وكذلك اسم الحشاشين نسبة إلى الحشيش الذي يتناوله قبل أن يقوموا بعملياتهم الحربية . يحدثنا عنهم ابن بطوطة بإسهاب ويذكر بعض حصونهم منها حصن القصير وحصن القدموس وحصن المنيقة وحصن العليقة وحصن مصياف وحصن الكهف إلى أن يقول:" وهذه الحصون لطائفة يقال لها الاسماعيلية ويقال لهم الفداوية ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم، وهم سهام الملك الناصر، بهم يصيب من يعدو عنه من أعدائه بالعراق بالطرق وغيرهم، ولهم مرتبات، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه ديته، فإن سلم بعد تأتي ما يراد منه فهي له، وإن أصيب فهي لولده، ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا إلى قتله". انظر: رحلة ابن بطوطة، ، ج1، ص286 ،تعليق 127.

(26) المجاعة في اللغة هي مفعلةً من الجُوع، ومن الفعل جاع يجوع، فهو جائع وجوعان، والجوع نقيض الشبع، وهو أسم للمخمصة وهي مصدر مثل المغضبة والمعتبة: وهي خلاء البطن من الطعام جوعاً، والمسغبة ايضاً تعني المجاعة، ويطلق على المجاعة أيضاً مصطلح الأُلبَةُ: وهي مأخوذة من التألُّب والتجمُع، لأن الناس يجتمعون في المجاعة ويخرجون أرسالاً..، وقد أُطلق على السنة التي تحدث فيها المجاعة تسميات عديدة، كالسنة الغبراء وسنة لزبة: أي شديدة، وهي السنة التي يكون فيها القحط، واللزُوب: القحط. أنظر: ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، 1968م، 368/1، 431/2 . 432؛ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، بيروت، دار العلم للملايين، د.ت، 82/1، 15/3؛ الجوهري، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، تحقيق أحمد عبد الغفور، بيروت، ط3، دار العلم للملايين، 1984م، 147/1، 1201/3.

(27) المقريزي، السلوك، ج1، ص807–810؛الخطط، ج3، ص177؛ حياة الحجي، أحوال العامة في حكم المماليك، ص185؛محمد بركات البيلي، الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر، القاهرة، مكتبة الشروق، 1986.

مد الأسمطة حرصاً على توفير الطعام والاقتصاد في الصرف[28] ولم يقتصر الأمر على ذلك ، إذ انتشرت ظاهرة التزييف في النقد[29] حيث يترتب عليها ارتفاع الأسعار ، وإغلاق الأسواق ، وصعوبة الحصول على الغذاء ، كانت العامة عادة أكثر الناس تضرراً بظاهرة التزييف النقدي خصوصاً التجار منهم ، كذلك كان قدوم الجراد من الصحراء في الجزيرة العربية إلى الأقاليم الشامية عاملاً أساسياً في ارتفاع الأسعار إذ يقضي الجراد على أغلب المحاصيل الزراعية ، كما كانت الهجرات المتتالية من أهل الريف إلى المدن ، وانعدام الأمان في الطرقات العامة بين المدن والأقاليم نتيجة تعدد حوادث النهب والسلب للمسافرين على يد قطاع الطرق من الظواهر الاجتماعية التي كان ينتج عنها الغلاء خصوصاً إذا كانت البضائع المنهوبة من المواد الغذائية شديدة الاستهلاك للعامة كالقمح واللحوم والبقول والغلال[30]. وقد ذكر ابن بطوطة ظاهرة الغلاء الشديد الذي أصاب بلاد الشام سنة(748هـ/1347م)، بقوله: "وأقمت بدمشق الشام بقية العام والغلاء شديد، والخبز قد انتهى إلى قيمة سبع أواق بدرهم نقرة، وأوقيتهم أربع أواق مغربية"[31].

كذلك أشار ابن بطوطة إلى (حكاية قتلى الخبز) التي وقعت في سنة (748هـ/1347م) ،وذلك عندما "مات في تلك الأيام بعض كبراء دمشق، وأوصى بمال للمساكين فكان المتولي لإنفاذ الوصية يشتري الخبز ويفرقه عليهم كل يوم بعد العصر، فاجتمعوا في بعض الليالي وتزاحموا واختطفوا الخبز الذي يفرق عليهم، ومدوا أيديهم إلى خبز الخبازين، وبلغ ذلك الأمير أرغون شاه[32] فأخرج زبانيته، فكانوا حيث ما لقوا أحداً من المساكين، قالوا له: تعال تأخذ الخبز، فاجتمع منهم عدد كثير، فحبسهم تلك الليلة، وركب من الغد، وأحضرهم تحت القلعة، وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وكان أكثرهم براء من ذلك وأخرج طائفة الحرافيش[33] عن دمشق فانتقلوا إلى حمص وحماه وحلب، وذكر لي أنه لم يعش بعد ذلك إلا قليلاً وقتل"[34].

ولا شك أن هذه الحادثة تعبر عن صورة صادقة وطبيعية حول رد فعل العامة نحو السلطة المسؤولة عن تدبير الشؤون الداخلية في البلاد نتيجة المعاناة التي تقاسيها هذه الفئة من المجاعات، بسبب الغلاء الشديد للأطعمة والمواد الغذائية الضرورية مثل الخبز والقمح والذرة والشعير، وعلى ذلك يمكن القول إن الغلاء كان من الأسباب الفعالة التي تهيج العامة ضد السلطة، الأمر الذي يوضح سوء الحالة الاقتصادية لهؤلاء الناس.

---

(28) المقريزي، السلوك، ج1، ص814؛ الخطط، ج2، ص250؛النجوم، ج8، ص157؛ بدائع، ج1، ص134.

(29) المقريزي، السلوك، ج2، ص205-206؛ النجوم، ج4، ص77.

(30) حياة الحجي، أحوال العامة في حكم المماليك، ص 203.

(31) رحلة ابن بطوطة ، ج4، ص177 .

(32) أرغون شاه أو ارغون الكاملي نائب حلب، كان أحد مماليك الصالح إسماعيل رباه وهو صغير السن، فلما ولى الكامل حظى عنده وقدمه وأمره مائة .. ولكنه لم يلبث وقد شعر بالتآمر ضده أن فر إلى مصر حيث تلقاه أهلها بالشموع .. وانتهى أمره إلى الامتحان فأقام بالقدس بطالا ومات في شوال (758هـ/1357م) . الدرر الكامنة، ج1، ص375-374؛ رحلة ابن بطوطة، ج4، ص178، هامش42.

(33) الحرافيش: يقصد إلى طائفة من الناس تجتمع إلى زعيم يعدل بينهم فيما يحصلون عليه من أموال، ويهتمون بالفقراء ويهتم الأقوياء منهم بالضعفاء ورد ذكرهم لدى المؤرخين المصريين وفي ألف ليلة وليلة ، وقد وجدنا ذكراً لملكهم عام 792هـ/1390م...وقد كتب عنهم الروائي نجيب محفوظ.

انظر:رحلة ابن بطوطة، ج1، ص214، هامش 125. Gibb T.L.P.54 NOT -169

(34) رحلة ابن بطوطة،ج4،ص178.

كما كان قبض الأمير على عدد من العامة ومعاقبتهم جزاء على ما اقترفوه في حق الخبازين عبرة لغيرهم من عامة الناس فلا يجرأوا على التطاول على موظفي الدولة من كبار المسؤولين والموظفين ، وقد أدى ظلم بعض الأمراء في تطبيق أحكام العقوبة على الكثير من العامة إلى جرأتهم على التجاهر بالعداء ضد الحكام والسلاطين، وكانت هذه بالفعل فرصة مناسبة للسوقة والحرافيش، للمبادرة إلى نهب غلال كل من عمل على تخزين المواد الغذائية وامتنع عن بيعها.

وقد وافق المقريزي ابن بطوطة ولكن بتفصيل أوسع في حدوث ظاهرة الغلاء في المدن الرئيسية بشكل خاص ففي شعبان (748هـ/1347م) "ارتفع سعر القمح من أربعين درهماً للأردب إلى خمسين وغلا اللحم وعامة الأصناف المأكولة حتى بلغت مثلي ثمنها، وتوقفت الأحوال، وقلت الغلال، وكذا السؤال من كثرة قدوم أهل النواحي إلى القاهرة حتى ضاقت بهم فكانوا كذلك مدة سنة، مع كثرة المناسر في البلاد، وقوة المفسدين وقطاع الطرق بأرض مصر والقدس ونابلس.."[35].

ويشير المقريزي إلى إحدى ثورات العامة التي وقعت في محرم (749هـ/1348م) عندما "رجمت العامة المحتسب. وسببه أن السعر لما تحسن بلغ الخبز ستة أرطال وسبعة أرطال بدرهم،فعمل الخباز خبزا،ونادى عليه ثمانية أرطال بدرهم، فطلبه المحتسب وضربه، فثارت العامة به ورجموا بابه حتى ركب الوالي وضرب منهم جماعة"[36].

إلى جانب ذلك كان عدم حدوث فيضان ماء النيل من الأسباب الرئيسية التي ترتب عليها ارتفاع سعر المواد الغذائية، فإذا توالى حدوث ذلك في سنوات متعاقبة تصبح الخسارة في كمية المحاصيل الزراعية جسيمة، وتزداد أسعار الأطعمة والأقوات بشكل فاحش يهدد بوقوع كارثة اقتصادية وأزمة اجتماعية يعاني منها الناس بمختلف طبقاتهم[37].

يذكر بنيامين مدى خطورة انحسار مياه نهر النيل على مصر، فقد وجد البلد كثير الجفاف لا يزال فيه مطر ولا تتساقط فيه ثلوج، ومناخه شديد الحر، ويفيض نهر النيل مرة في العام، فتغمر مياهه من الأراضي، ما مسيرته خمسة عشر يوماً..، أما إذا قل فيضه فلا يكون للناس زرع في ذلك العام، ويصيب البلد قحط شديد على حد قوله[38].

كما يشير ابن بطوطة إلى أن ابتداء زيادته في حزيران، فإذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعاً تم خراج السلطان، فإن زاد ذراعاً كان الخصب في العام، والصلاح التام ، فإن بلغ ثمانية عشر ذراعاً أضر بالضياع وأعقب الوباء ، وإن نقص ذراعاً عن ستة عشر نقص خراج السلطان ، وإن نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد[39].

إذن كان نقص ماء النيل وعدم حدوث الفيضان سبباً فعالاً لارتفاع الأسعار خاصة المنتوجات الزراعية، إذ يترتب على ذلك قلة كمية المحاصيل الزراعية في حين استمرت نسبة الضرائب (=المكوس) المقررة على الفلاحين ثابتة بشكل منتظم، الوضع الذي يتضمن صورة واضحة من الجور الجبائي والحيف الاجتماعي الذي تعاني منه هذه الفئات من الناس.[40]

(35) المقريزي، السلوك، ج2، ص740.
(36) المصدر نفسه، ج2، ص758.
(37) حياة الحجي، أحوال العامة في حكم المماليك، ص207.
(38) بنيامين، الرحلة، ص 173-174.
(39) رحلة ابن بطوطة، ج1، ص208.

3- الطاعون الجارف[41] :(749هـ -1348م)

نظراً لأهمية هذا الطاعون كحدث عالمي فترة العصور الوسطى، فإنه لاقى عناية خاصة لدى كتاب الحقبة مقارنة بالأوبئة والطواعين الأخرى الواقعة في نفس الفترة[42]، فالمصادر العربية أطلقت على هذا الوباء العديد من التسميات أهمها: الطاعون الجارف، الطاعون الأعظم، الوباء العام، الوباء الأول، في حين أطلق عليه في أوروبا اسم "الطاعون الأسود" (LAPESTE NOIRE)، وكلمة PESTE كانت تطلق قديماً على الوباء [43].

من الصعوبة بمكان تتبع الأوبئة والمجاعات كافة التي تعرضت لها البلاد في عصر المماليك، رغم تعدد المصادر والمؤلفات التي تحدثت عنها[44] ، لكن مما تجدر الإشارة إليه نظرة الرحالة المغاربة لقسوتها من ناحية، وما كانت تتعرض له البلاد والعباد بسببها من ناحية أخرى ، مع العلم أن الذي عاصر هذه الأحداث من الرحالة المغاربة هو ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري/14م[45] وقد تطابقت رؤيته مع الكثير من المؤرخين المشارقة[46] في نقل صور هذه الظواهر، وما نجم عنها من آثار وخيمة على الناحية الديمغرافية، وعلى العمران والاقتصاد على حد سواء، الأمر الذي يثير روح الخوف والجزع عند المعاصرين، يذكر ابن بطوطة حكاية (الوباء المجتاح)،في أوائل شهر ربيع الأول من سنة (749هـ/1348م) في

---

(40) انظر المقريزي، السلوك، ج2، ص832-833، ج3، ص218-219؛ النجوم، ج11، ص65،129؛ بدائع، ج1، ص229؛ الحجي، أحوال العامة في حكم المماليك، ص264، 260.

(41) يعد هذا الطاعون من أعظم الأوبئة التي بليت بها البشرية فترة العصور الوسطى، إن عام (749هـ/1348م) يعد في نظر أغلب الدراسات الحديثة تاريخ ولادة الطاعون في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط فترة العصور الوسطى ، يذكر أن مصدر هذا الطاعون الصين ثم انتقل إلى الهند، وبلاد السند، وبلاد أزوبك، والقرم، والروم، ومن قبرص إلى مصر . أما زمن حدوثه فيذكر أنه ابتدأ سنة (734هـ/1334م).

انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص 195-233؛ابن الخطيب، لسان الدين، مقنعة السائل عن المرض الهائل، منشورات معهد العلوم العربية الإسلامية فرانكفورت، 1997، ص45؛ ابن خاتمة، أحمد بن علي، تحصيل غرض القاصد في تفضيل مرض الوافد، نشر ضمن كتاب: عبد الكريم الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس ط1، بيروت، دار الغرب، 1988، ج1، ص173؛ حدادي، أحمد أخبار الأوبئة والأمراض في الرحلات السفارية المغربية، مجلة كنانيش، جامعة محمد الأول،العدد3،2001؛ البزاز،محمد الامين، الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14، مجلة كلية الأداب، الرباط، العدد 16، 1991، ص 109.

(42) انظر: مزدورسمية، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588هـ -927هـ/1192م-1520)جامعة منتوري، قسنطينة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،1429-1430 هـ/2008-2009م، ص139-140.

(43) عبد الكريم الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية ،149/2؛ بولقطيب، الحسين ،جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، الدار البيضاء، النجاح الجديدة، منشورات الزمن، 2002، ص51.

(44) راجع جدول الأوبئة والأمراض في القرن الرابع عشر. فادي إلياس نوا، المناخ والأسعار والأمراض في بلاد الشام في عهد المماليك (648-922هـ/1250-1516م)، بيروت، 1998م، ص 377-397.

(45) لقد كانت رحلة ابن بطوطة هي الرحلة الوحيدة التي ذكرت هذا الطاعون كون ابن بطوطة قد عاصر هذا الحدث وفقد فيه ابنه وزوجته ، وقد صادف اثناء عودته الى المغرب هذا الوباء،الذي اكتسح العالم.اعتمد ابن الخطيب على ابن بطوطة،فكان ضمن مصادره،يقول ابن الخطيب عن خبر الطاعون:"حدث بذلك غير واحد ممن يوثق به من أولي الرحلة والجولان كالشيخ القاضي الحاج أبي عبد الله ابن بطوطة وغيره" .انظر:رحلة ابن بطوطة، ج1،ص326،325 ؛ابن الخطيب،مقنعة السائل،ص67.

(46) انظر: المقريزي، السلوك، ج2، ص770؛ ابن تغري، النجوم، ج10، ص204، 205؛ ابن اياس،بدائع ، ج1، ص191؛حياة الحجي، أحوال العامة في حكم المماليك (678-784هـ/1382.1279)، ط2، الكويت، 1994، ص361-366.

الشام ومصر وانعكاسه على الحياة العامة، كما يقدم لنا إحصائية عن أعداد الأموات في كل مدينة على حده، يقول ما نصه:" بلغني الخبر في حلب أن الوباء وقع بغزة، وأنه انتهى عدد الموتى فيها إلى زائد على الألف في يوم واحد فسافرت إلى حمص فوجدت الوباء قد وقع بها، ومات يوم دخولي إليها نحو ثلاثمائة إنسان، ثم سافرت إلى دمشق ووصلتها يوم الخميس، فانتهى عدد الموتى عندهم إلى ألفين وأربعمائة في اليوم، ثم سافرت إلى عجلون ثم الى بيت المقدس ووجدت الوباء قد ارتفع عنه"[47]. وقد استثنى ابن بطوطة بعض علماء بيت المقدس ومشايخها من انتشار الوباء فيهم بقوله: " ووجدت من كنت أعهده من جميع الأشياخ بالقدس قد انتقلوا إلى جوار الله تعالى رحمهم الله، فلم يبق منهم إلا القليل، مثل المحدث العالم الإمام صلاح الدين خليل بن كيلكدي العلائي، ومثل الصالح شرف الدين الخشي شيخ زاوية المسجد الأقصى"[48] .

ثم ينتقل ابن بطوطة من مدينة الخليل عليه السلام إلى مدينة غزة، إذ يجد الوباء قد استشرى بها حتى أصبحت المدينة شبه خالية من كثرة من مات فيها بقوله:" ثم سرنا إلى غزة، فوجدتها معظمها خالياً من كثرة من مات بها في الوباء، وأخبرنا قاضيها أن العدول بها كانوا ثمانين، فبقى منهم الرُبع، وأن عدد الموتى بها انتهى إلى ألف ومائة في اليوم"[49].

لم يكن هذا الوباء قاصراً على دولة المماليك في بلاد الشام فحسب، لأنه لم يكن له نظير في قسوته وسرعة انتشاره في ربوع البلاد والأقاليم، ففي البداية ابتدأ الوباء في القاهرة ومصر بالنساء والأطفال ثم في الباعة ثم عموم الناس[50] واشتد الوباء حتى عجز الناس عن حصر الأموات، ومن ثم انتقل إلى أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً[51] ،وقد عرف ذلك الوباء في أوروبا باسم الطاعون الأسود[52]. ويروي ابن بطوطة أنه كان يموت بالإسكندرية في اليوم الواحد بسبب ذلك الوباء ألف وثمانين، أما مدينة القاهرة فقد بلغ عدد الموتى أيام الوباء فيها إلى واحد وعشرين ألفاً في اليوم، ووجدت من كان بها من المشايخ الذين عرفتهم قد ماتوا[53]. كذلك يحدثنا عن آثار هذا الوباء في قوافل الحجيج المصرية التي لم تسلم من سريان الداء فيها حينما كانت متوجهة إلى الأراضي المقدسة فيقول: " وجد قاضي القضاة عز الدين ابن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، قد توجه إلى مكة في ركب عظيم يسمونه الرجبي، بسفرهم في شهر رجب وأخبرت أن الوباء لم يزل معهم حتى وصلوا إلى عقبة أيلة، فارتفع عنهم"[54].

---

(47) رحلة ابن بطوطة، ج4، ص179.

(48) المصدر نفسه، ج4، ص180.

(49) المصدر نفسه ، ج4، ص180.

(50) في مصر فإن بداياته كانت في خريف 1347م "أخر أيام التخضير" ولزمه أربعة وخمسة أشهر كي ينتشر في مختلف أنحائها وهو الوقت الذي استغرقه للوصول إلى بلاد الشام. انظر المقريزي، الخطط، ج1، ص401-413.

(51) إن سرعة جائحة الطاعون كانت حوالي ثلاثة كيلومترات في اليوم، إذ استغرق انتقال الطاعون من القاهرة إلى غزة مدة أربعة أشهر، ثم ازدادت سرعة الطاعون على ما يبدو بمقدار ثلاثة أضعاف تقريباً وبلغت سرعته 9.4 كلم في اليوم. انظر إلى فادي إلياس، المناخ والأسعار والأمراض في بلاد الشام في عهد المماليك، ص380.

(52) يعتبر هذا الطاعون من أشد الأوبئة التي فتكت بالإنسان منذ القرن السادس الميلادي، وهو من الأمراض المعدية التي تسببها البكتريا "البرسينيا الطاعونية". Yerisinia pestis وهو حيواني المنشأ ينتقل إلى الإنسان عن طريق الحيوانات التي تعتبر مصدراً للعدوى. ومن الطبيعي أن ندرك أن أسباب الطاعون لم تكن معروفة في القرون الوسطى، وليس هناك ما يشير في تلك الفترة إلى وجود علاقة ما بين هذا الوباء والحيوانات. د عطية فيليب، أمراض الفقر في دول العالم الثالث، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 161، 1992م، ص181-184.

(53) رحلة ابن بطوطة، ج4، ص181.

(54) المصدر نفسه، ص181.

ومن تفحص هذه التفاصيل الخاصة بالوباء أو الطاعون الذي تعرضت له بلاد الشام ومصر في سنة (749هـ/ 1348م) يمكن أن تستخلص بعض الملاحظات:

– حدوث وفيات على نطاق واسع نتيجة هذا الطاعون على الرغم من وجود عامل المبالغة والتهويل في الأعداد المدرجة ضمن النصوص التي يرويها ابن بطوطة ومؤرخو العصر المملوكي[55] مع عدم التسليم بأن هذا الطاعون كان أكثر فتكا وأسرع انتشاراً في وفاة الكثير من المعاصرين[56].

– الشلل الملاحظ في الحياة الاقتصادية في المجتمع الشامي والمصري في ظل حكم السلاطين المماليك مع توقف جميع مظاهر الأنشطة الاجتماعية المختلفة.

– شمولية هذا الوباء وسريانه في جميع الأقاليم والولايات والمدن والقرى التابعة للسلطة من دون استثناء.

– انعدام الوعي الصحي الضروري للحيلولة دون تفشي هذه الأمراض، وعدم بذل العناية اللازمة في المارستانات القائمة بتقديم العلاج الناجع والدواء المفيد علاوة على إهمال الحكام للدعم المعنوي والمادي لتلك المراكز الاجتماعية كي تستمر في تقديم الخدمة اللازمة للمرضى الذين لديهم أمل في الشفاء.

– إقبال الناس على الدين كمنقذ من الهلاك والدمار، وذلك بإراقة الخمور والكف عن السيئات، وإقامة الشعائر الدينية والمحافظة عليها، والإكثار من الصدقات وأعمال الخير والإحسان إلى جانب الإقبال على تلاوة القرآن الكريم في المساجد والإكثار من الصيام . يذكر ابن بطوطة إقبال أهل دمشق على الصلاة والصيام رغبة في حلول الرحمة والنجدة لهم بقوله: " ثم سافرت إلى دمشق ووصلتها يوم الخميس، وكان أهلها قد صاموا ثلاثة أيام، وخرجوا يوم الجمعة إلى جامع الأقدام.. فخفف الله تعالى الوباء عنهم"[57].

كذلك يحدثنا عن خبر ذلك الفقير الصائم الذي دخل عليهم بتلك الزاوية فأقام ليله ساجداً وقائماً طالباً كشف الوباء عنه، يقول:" وبينما نحن بتلك الزاوية إذ دخل علينا أحد الفقراء فسلم، وعرضنا عليه الطعام فأبى وقال: إنما قصدت زيارتكم، ولم يزل ليلته تلك ساجداً وراكعاً، ثم صلينا الصباح واشتغلنا بالذكر، والفقير بركن الزاوية فجاء الشيخ بالطعام، ودعاه فلم يجبه، فمضى إليه فوجده ميتاً، فصلينا عليه ودفناه"[58].

كما يذكر ابن بطوطة الوعاظ الذين نذروا في أيام الوباء إعداد الولائم إذا ما أذهب الله عنهم الداء وشفاهم، أو إذا لم يدعوا للصلاة على ميت في يوم، وذلك لنيل الأجر والمثوبة، يقول:" وصنع الخطيب عز الدين يوماً دعوة ودعاني فيمن دعا إليها، فسألته عن سببها؟ فأخبرني أنه نذر أيام

(55) انظر : المقريزي، السلوك، ص772–783؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص191–192؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج15، ص195–213 ؛حياة الحجي، أحوال العامة في حكم المماليك، ص367.

(56) بقى هذا الطاعون في بلاد الشام من نيسان 1348م، حتى نيسان 1349م أي سنة كاملة كانت كافية للقضاء على 2/3 السكان تقريباً، فخلت أرض الشام من أكثرية سكانها. أما في مصر فيبدو أن حجم الضحايا أكثر هولاً " فكان يموت في القاهرة ومصر ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألفاً نفس كل يوم" . ابن حبيب، الحسن بن عمر، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد أمين، مصر ، الهيئة العامة للكتاب، 1976–1986م، ج3، ص110–111؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص195.

(57) رحلة ابن بطوطة ،ج1، ص326.

(58) المصدر نفسه، ج4، ص181.

الوباء، أنه إن ارتفع ذلك، ومر عليه يوم لا يصلي فيه على ميت، صنع الدعوة ! ثم قال لي: ولما كان بالأمس، لم أصل على ميت، فصنعت الدعوة التي نذرت!" [59].

يبدو أن الأوبئة قد خلقت مجتمعاً خائفاً من العدوى والأمراض، وجعلتهم بذلك ينيبون إلى الله تعالى، ويتوبون إليه لإيمانهم بأن الأمراض مثلها مثل المجاعات، إنما هي عقاب إلهي ،ولهذا كانت الجوامع والزوايا ونذور الأولياء ملاذا لهم بطلب الاستشفاء بها.كما أن الأوبئة التي تؤدي بحياة الخاصة والعامة قد أدت الى حدوث تراجع كبير في الحياة العلمية من خلال موت العلماء بها خصوصاً ذلك "الطاعون" الذي مثل كارثة إنسانية عمت العالم بأسره، فحصد الأرواح، ولم ينج منه إلا القليل، فالطاعون لم يكن حدثاً اختص بمنطقة دون غيرها، كغيره من الأحداث التي حدد المؤرخون من خلالها نهاية فترة العصور الوسطى، فهذا الطاعون كان حدثاً عالمياً عم عالم العصور الوسطى بأسره، ولهذا يستحق أن يكون مؤشراً على نهاية العصور الوسطى، لأنه " ذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها" على حد تعبير ابن خلدون عن هذا الحدث[60].

خاتمة:

من كل ما تقدم يمكن استخلاص ما يلي:

– إن الصورة التي يرسمها الرحالة بنيامين في رحلته هاته الى المشرق ترتبط بالمرجعية الذهنية وخلاصة اهتمامه التي تتلخص في محاولة التركيز على ذكر ووصف كل ماله علاقة باليهود واليهودية وهو القصد من الرحلة.وعلى الرغم من طغيان هذا العامل على نص الرحلة ، فهناك بعض الإشارات التي ركز عليها والتي يمكن أن تفيد الباحث في موضوع ذكر النشاط الزلزالي وآثاره في مناطق المسلمين والصليبيين خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري (12م).

– قدم الرحالة بنيامين في رحلته إشارتين هامتين عن التأثير التدميري الذي أحدثته الزلازل في حماة (552هـ-1157م)،وقدم تحديدا معينا لعدد الذين قتلوا من جرائه كما تناول ما أحدثته الزلازل في طرابلس في مرحلة لاحقة،وبمقارنة نص بنيامين مع النصوص المشرقية تبين لنا مدى مبالغته بالنسبة لتحديده لأعداد القتلى من جراء الهزات الزلزالية على نحو خاص،إلا انها تفيد من حيث إنها تعكس لنا ظاهرة الخراب وتراجع المدن حينذاك.

– إن ابن بطوطة بالرغم مما دونه من ملاحظات هامة حول بعض المستويات الاجتماعية،فإنه لم يلتفت إلى ما كان يجري في مصر والشام في ظل السيطرة المملوكية من تحولات اجتماعية وسياسية جارفة عصفت بالكثير من الثوابت الدينية والقواعد الأخلاقية ،وهي التحولات التي أكدت معظم المصادر التاريخية إنها كانت السبب فيما آلت إليه الأوضاع العامة في مصر والشام من اضطراب واختلال مست البنية الديمغرافية والاقتصادية والمجتمع على حد سواء.

– كانت ظاهرة غلاء الأسعار في الأسواق نتيجة حتمية للتزييف في النقد،حيث تضطرب حالة المعاملات التجارية بسبب تناقص الذهب في خزانة الدولة،فيكثر التهالك على شراء البضائع وخاصة المواد الغذائية الضرورية،الأمر الذي سبب ارتفاع الأسعار.ولوحظ ارتباط الوضع الاقتصادي في الأقاليم المشرقية المملوكية بعضها ببعض،فعندما يحدث غلاء في الشام يمتد تأثيره إلى مصر فترتفع الأسعار.

---

(59) المصدر نفسه، ج4، ص180.

(60) أتى الطاعون الجارف لسنة (749هـ/1348م) على والديه، وقد خصص فقرات باكية في مقدمته لما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في المائة الثامنة بسبب هذا الطاعون الذي طوى كثير من محاسن العمران.انظر: التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، ط.1، بيروت، دار الكتب ا لعلمية، 2004، ص 64،65.

– لئن رسم لنا ابن بطوطة صورة قاتمة عن الطاعون الجارف الذي كانت نتائجه على المنظومة الديمغرافية وخيمة،فإن المشرق قد عرف بعد هذا الطاعون فراغاً سكانياً في المدن الكبرى،وحسبنا في ذلك ما ذكره ابن بطوطة عن أعداد الموتى بمصر والشام في اليوم الواحد جراء هذا الوباء والذي قدر بألوف،وعلاوة على هذا لم تكن مدن المشرق قد تجسدت فيها صورة الموت بسبب هذا الوباء آنذاك،وإنما القرى والأرياف فيه أيضا تعرض أهاليها للفناء نتيجة هذا الوباء.

– اذا قابلنا المعلومات في رحلتي ابن يونة وابن بطوطة مع المصادر المشرقية،نجد التطابق وعدم التناقض،على الرغم من قلة النصوص التي ذكرها الرحالتين عن الأزمات والكوارث وآثارها ولكنها معلومات مركزة وغنية تمكن الدارس من معرفة الأوضاع العامة في هذه المدة التاريخية.

قائمة المصادر والمراجع:

– القرآن الكريم.

أ– الكتب العربية:

– ابن الأثير، عز الدين محمد الجزري، الكامل في التاريخ،تحقبق عبد الوهاب النجار ، ط القاهرة ، 1929.

– ابن إياس،محمد بن أحمد،بدائع الزهور في وقائع الدهور،القاهرة،1896.

– ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عنان، م11، ط. القاهرة،1974.

– ابن الخطيب، لسان الدين، مقنعة السائل عن المرض الهائل، منشورات معهد العلوم العربية الإسلامية فرانكفورت، 1997.

– ابن الفرات،محمد بن عبد الرحيم، تاريخ الدول والملوك، تحقيق محمد حسن الشماع، ط.البصرة،1976؛تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين،بيروت،1939

– ابن القلانسي، ابو يعلي حمزة، ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق أميد روز وسهيل زكار، ط. دمشق، 1983.

– ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، قدم له وحققه ووضع خرائطه وفهارسه عبد الهادي التازي، مطبوعات اكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ/1997م.

– ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط.القاهرة،1956.

– ابن جبير، محمد الكناني البلنسي، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار (طبع باسم رحلة ابن جبير)، دار الشرق العربي، بيروت – لبنان، د.ت.

– ابن حبيب، الحسن بن عمر، تذكرة النبيه في ايام المنصور وبنيه، تحقيق محمد أمين، مصر ، الهيئة العامة للكتاب، 1976–1986.

– ابن حجر،احمد علي،الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة،القاهرة،1966.

– ابن خاتمة، احمد بن علي، تحصيل غرض القاصد في تفضيل مرض الوافد، نشر ضمن كتاب: عبد الكريم الخطابي، الطب والاطباء في الاندلس، ط1، بيروت، دار الغرب، 1988.

– ابن خلدون،عبد الرحمن بن محمد ،التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (طبع باسم رحلة ابن خلدون)، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، ط.1، بيروت، دار الكتب ا لعلمية، 2004.

– ابن خلدون،عبد الرحمن بن محمد، المقدمة،تحقيق محمد الاسكندراني، بيروت،دار الكتاب العربي، 2006.

– ابن خلكان ،أبو عباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،تحقيق احسان عباس،بيروت،دار الثقافة ،1968.

– ابن شاكر الكتبي، محمد بن احمد، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق محمد محيي الدين، ط. القاهرة، 1951.

– ابن قاضي شهبة، تقي الدين، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد، ط. بيروت، 1971.

– ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، بيروت، دار صادر، 1968م.

- ابن واصل، جمال الدين، مفرج الكروب في تاريخ بني أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط.القاهرة ، 1953.
- ابو شامة، شهاب الدين، الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي، ط. القاهرة،1962.
- البزاز،محمد الامين، الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14، مجلة كلية الأداب، الرباط، العدد 16، 1991.
- البنداري،الفتح بن علي، سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، القاهرة، 1979.
- البيلي ،حمد بركات ، الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر، القاهرة، مكتبة الشروق، 1986.
- التطيلي، بنيامين بن يونة، رحلة ابن يونة إلى بلاد الشرق الإسلامي ، ترجمها وعلق على حواشيها عزرا حداد، ط1، بيروت، دار ابن زيدون، 1996.
- الجوهري،ابو النصر اسماعيل بن حماد، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، تحقيق أحمد عبد الغفور، بيروت، ط3، دار العلم للملايين، 1984.
- الحجي،حياة ناصر،، أحوال العامة في حكم المماليك (678-784هـ/1382.1279)، الكويت، ط2، 1994.
- الخضري بك ،محمد ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، بيروت ، دار المعرفة ،د.ت.
- الصلابي ،علي محمد ، نور الدين محمود زنكي شخصيته وعصره،دار الاندلس الجديدة،القاهرة،2008.
- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، بيروت، دار العلم للملايين، د.ت.
- المقدسي، شهاب الدين عبد الرحمن بن إبراهيم ،عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية،1991.
- المقريزي،احمد بن علي، أتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ،1967.
- المقريزي، احمد بن علي،السلوك لمعرفة دول الملوك،ج2،1تحقيق محمد مصطفى زيادة.ج4،3 تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور،1939-1971.
- المقريزي،احمد بن علي،المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،القاهرة،1853.
- بولقطيب، الحسين ،جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، الدار البيضاء، النجاح الجديدة، منشورات الزمن، 2002.
- حدادي، احمد، أخبار الأوبئة والأمراض في الرحلات السفارية المغربية، مجلة كنانيش، جامعة محمد الأول،العدد3،2001
- حمادة ،ماهر ، الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية ، ط. بيروت، 1984.
- شحلان ،احمد، رحلة بنيامين التطيلي، ندوة الرحلة بين الشرق والغرب، منشورات جامعة محمد الخامس، الرباط، 2003.
- عوض ،محمد مؤنس ، النشاط الزلزالي في بلاد الشام في المرحلة من (551-554هـ) (1156-1159) وآثاره في مناطق المسلمين والصليبيين كلية الآداب- عين شمس، القاهرة ،مركز بحوث الشرق الأوسط، سلسلة دراسات (140)، 1993.
- عوض، محمد مؤنس ، مصادر تاريخ الزلازل في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/الثاني عشر.م (551-598هـ - 1156-1202م)، كلية الآداب- عين شمس، القاهرة، مركز بحوث الشرق الأوسط، سلسلة دراسات

عن الشرق الأوسط (120)، 1992.
- فادي إلياس نوا، المناخ والأسعار والأمراض في بلاد الشام في عهد المماليك (648-922هـ/1250-1516م)، بيروت، 1998م.
- فيليب ،عطية ، أمراض الفقر في دول العالم الثالث، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 161، 1992.
- كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ترجمة صلاح الدين هاشم ، القاهرة، 1963.
- كنون، عبد الله، ذكريات ومشاهير رجال المغرب(ابن بطوطة)،منشورات المنظمة الإسلامية . ايسيكو . 1996.
- مزدور سمية، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588هـ -927هـ/1192م-1520)جامعة منتوري، كلية الاداب والعلوم الإنسانية ، قسنطينة ،1429 -1430 هـ/2008-2009م.
- مؤنس،حسين ،نور الدين محمود سيرة مؤمن صادق،الدار السعودية للنشر،جدة،1408هـ/1987.
- ياقوت الحموي ،شهاب الدين، معجم البلدان، ط.بيروت، د.ت.

ب- الكتب الاجنبية:

. GiBB. A.R Hamilton, The travels of Ibn Battuta, the Hakluyt society, 1959 & Combridge, 1958 .
. Ruhricht(R.) Ges shichte des Ken greiche Jerusalem, Innsbrucr 1889.P . 290, note.
. William of Jyre, A history of the deeds hone begond Thesea, vol.II, Trans.by Babcok and Krey, New York 1943, p.370.

ملحق رقم 1: نقلاً عن" الرحلة بين الشرق والغرب"، منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس، الرباط، 2003، ص 228.

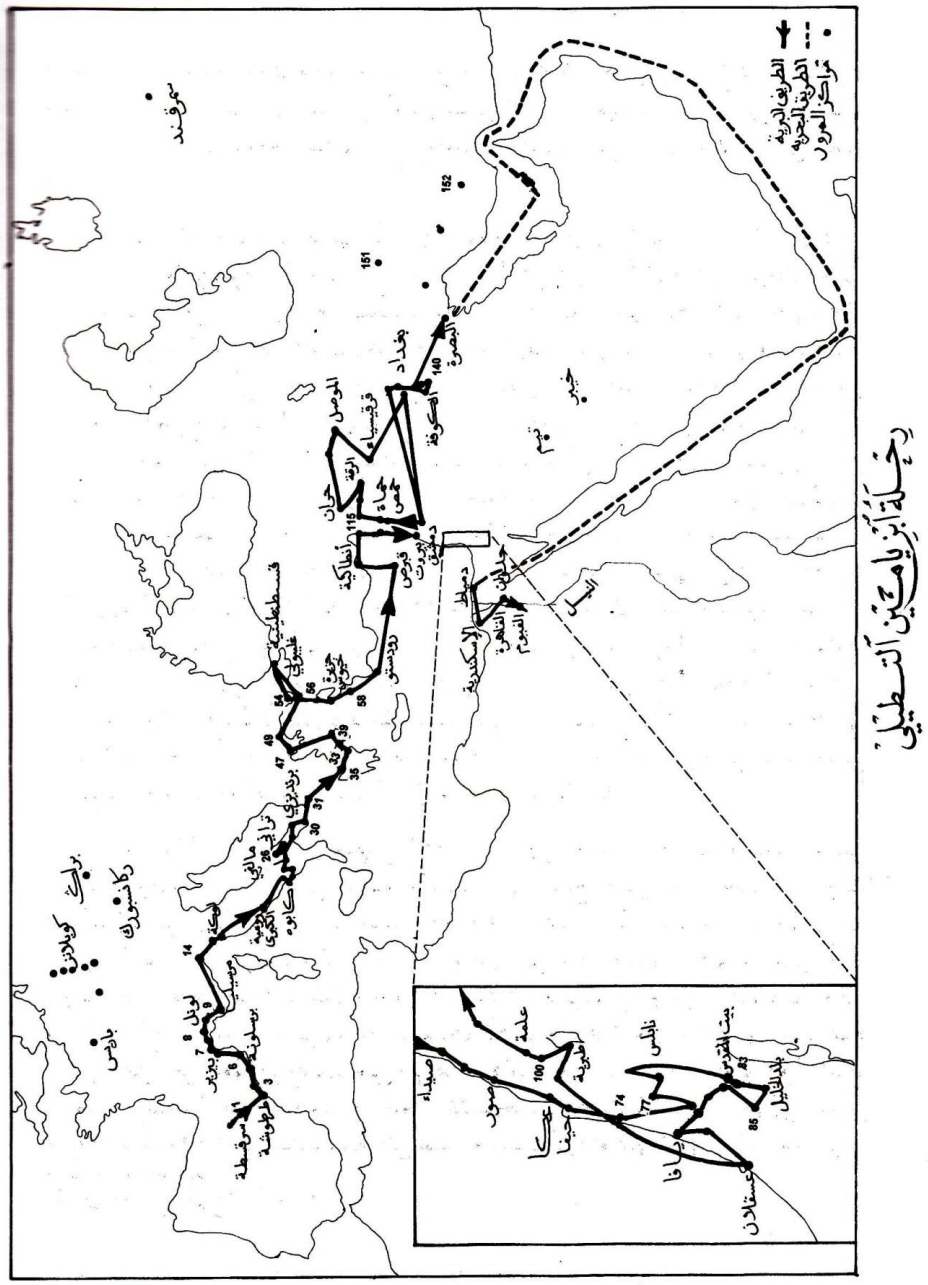

رحلة ابن بطوطة

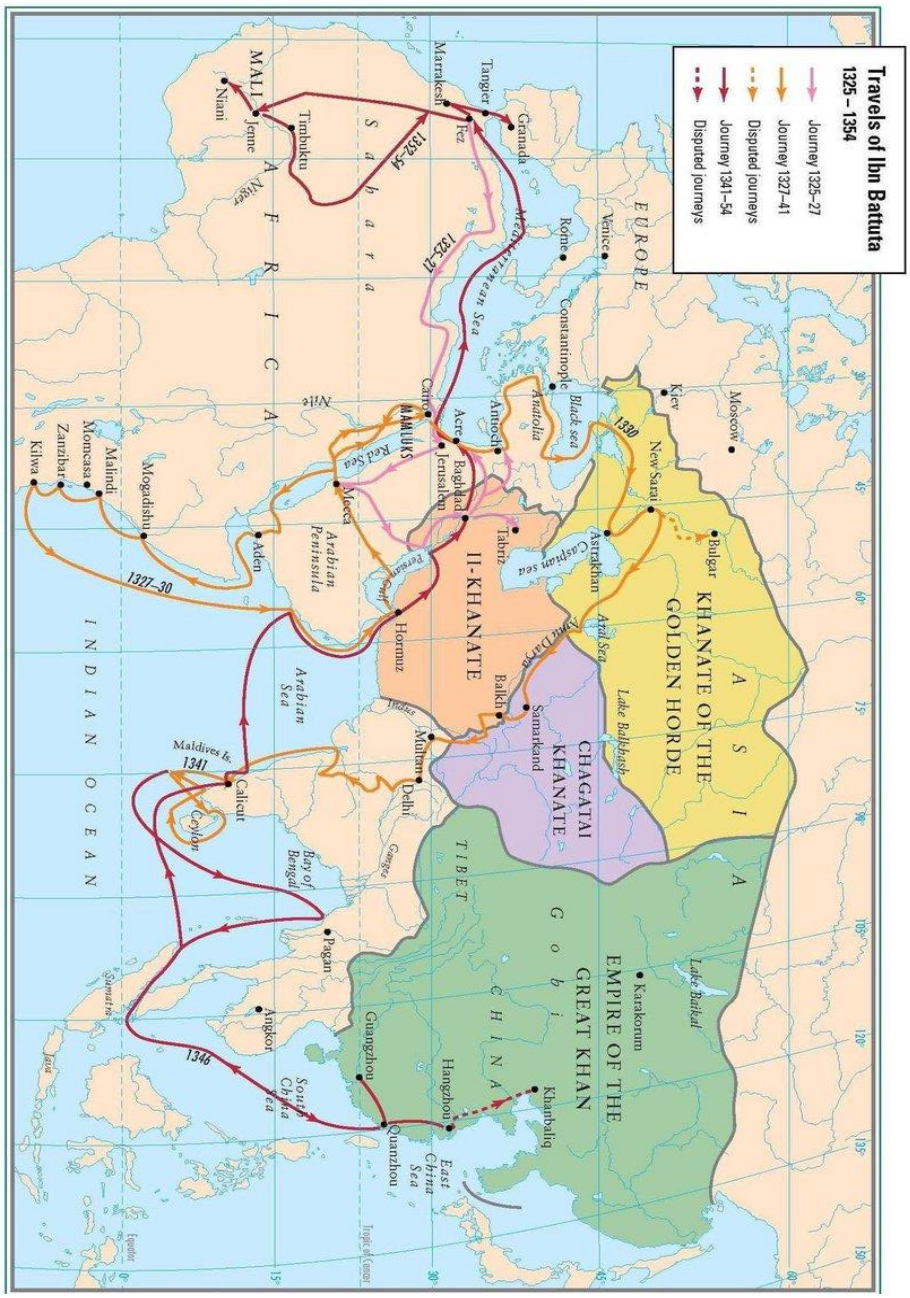

ملحق رقم 2: نقلا عن https://www.themaparchive.com/travels-of-ibn-battuta-132554.html

جدول يمثل أهم أنواع الطواعين.

أنواع الطواعين		أعراض المرض	بعض الأدوية المقترحة	المصدر/ المرجع
الطاعون	**الطاعون العقدي**	خراجات ناتئة تظهر في مغابن الجسم تتلون بألوان عديدة من الأحمر إلى الأصفر إلى الأسود، وتورم وآلام في الغدد اللمفاوية، ويصاحب ذلك حمى وخفقان وغشي.	ـ استفراغ البدن بالفصد. ـ أدوية مركبة. ـ بعض الأعشاب الطبية المفيدة لكل أنواع الطاعون مثل:"مرس، ريباس".. ـ تدابير لإصلاح الهواء والأغذية والماء	ابن سينا: **القانون في الطب**، 2575/8، ابن القيم: **الطب النبوي**، ص38، ابن البيطار: **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، 446/2-447، 433/4، ابن خاتمة: **تحصيل غرض القاصد**، ص157، 181، الأنطاكي: **بغية المحتاج**، ص335.
	الطاعون الرئوي	صعوبة في التنفس وسعال ونفث الدم، يصاحبه وجع في الجنب أو تحت أحد النهدين دون حرارة، ويصاحب ذلك أعراض عامة من الغشي وبرد في الأطراف وفساد العقل	ـ استفراغ البدن بالفصد. ـ أدوية مركبة. ـ تدابير لإصلاح الهواء والأغذية والماء.	ابن خاتمة: **تحصيل غرض القاصد**، ص181-182، ابن الخطيب: **مقنعة السائل**، ص 38-39.
	الطاعون الإنتانمي أو القروح السود	نفاخات سوداء في الجلد تنبع من الماء، ويصاحب ذلك ارتفاعاً شديد في درجة حرارة الجسم.	ـ استفراغ البدن من الدم الفاسد. ـ أدوية مركبة. ـ تدابير لإصلاح الهواء والأغذية والماء.	ابن خاتمة: **تحصيل غرض القاصد**، ص182.

ملحق رقم 3: نقلاً عن مزدور سمية، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-927هـ/1192-1520م)، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008-2009، ص252.